وداعا.. عثمان حسين

وصلت الخرطوم فجأة بلا حقائب على متن طائرة منهكة من الاسفار و المتاعب فى رحلة معاناه ووقفة مواساة فى ليلة حزينة و مظلمه...فى لحظة فراق مفاجئة و مؤلمة مباغتة و و مروعة كانها حشرجة ذبيح انطلقت من حنجرة مترعة بالانين مشبعة بالاهات مثقلة بالالم ونظرة وجوه مقروحة العيون متورمة الجفون..يبكى فراق الراحل الجميل ينبوع الحزن النبيل و قيثارة الفن الاصيل عثمان حسين..والعين لا تدمع مرتين و القلب لا يحتمل طعنتين

لم أجهش بالبكاء لان حبال حنجرتى تقطعت من جفاف الريق..و احتبست انفاسى من مرارة الزفير و الشهيق..فخاننى البكاء و خذلنى العويل لاننى كنت خارج دائرة العزاء..الاهل و الاصدقاء..أئمة الصلاة و الدعاء وذروة الايمان بالقضاء ساعة الزلزال الذى ضرب الوسط الفنى و عصف بآمال الامة المتعلقة بضوء اليقين فى آخرشعاع من قناديل الماضى او كما قال المتنبئ عند وفاة ابنه(وشرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى) قلت فى فراق أخى اللهم لا نسالك رد القضاء و لكن نسالك اللطف فيه.

دخلت الطائرة السودانية ليحضننى المضيف المتهدج الصوت يبكى معزيا فى وفاة فقيد الامة.. وكانت أصداء أغنية (شجن) تنبعث من داخل كابينة الطائره و كانى بها تعزى جموع المسافرين الى نفس المآتم الحزين..وتثير الشجن فى ليلة الشجن و يوم الشجن العظيم.

وكانت عيونى تشكو وطأة الالم من نار (الليزر) بعد عملية جراحية فى اليوم السابق وحرقة الدمع الحار المتدفق كشلال الدم المنحدر كحمم بركان من اعماق النفس الجريحة بسكين القدر فى خريف العمر.. و ما أضيع العمر لولا فسحة الامل..الامل المتبقى فى الارث الفنى...فى الصدى الباكى والوتر الشاكى..الشاكى من فراق الانامل التى صاغت من نبراته المموسقة أنشودة الخلود.. و الصدى الباكى على الصوت المطبوع فى وجدان الامة فى (همس السنبل و خرير الجدول)...و لوحة منحوتة فى قلب الوطن فى مجرى(محراب النيل) و تحفة مونا ليزا (أرضنا الطيبه) وتشكيلية (الفراش الحائر) و بصمات مزخرفة فى رائعة (قصتنا) ...قصتنا كلنا مع الفن ..مع الحب ..الحزن النبيل

و لاننى ماكنت أحسبنى احيا الى زمن أنعى فيه عثمان حسين تركت كتابى (قصتى مع عثمان حسين) بابا مفتوحا أدخل و أخرج منه كلما

ضاقت بى سعة الحياة.. وكدرت صفو شرب عذب الماء فى غير كوب عثمان حسين حتى سقطت القارورة و تدفق العطر و بقى لنا العبق المنداح المتناثر فى الأجواء ..نشتم فنهوى و نحتر فنروى..و أولها صورته معى قبل اربعين عاما ترفرف على غلاف الكتاب و كأنها تذكرنى مجددا :ولكم فى الموت حياة اخرى يا أولى الألباب..

و كاننى ولدت من جديد فى قرآءة متأنية للكتاب..لاكتب سطورا ما كنت قد كتبتها واصوغ كلمات لم احسن صياغتها وأتامل نهايات ما كنت قد استشرفتها.. و اعيد روايات لم تخطر ببال عثمان و ما طافت بخياله الفنان فى أقسى اجاباته عندما قال لى :اننى لا أحب الموت ولكننى اتمناه من (القوة للهوة)..أمامى أبنائى وخلفى جماهيرى وليته رأى كيف تحققت أمنيته و صدقت نبؤته فى (أرضنا الطيبه) التى غنى لها فانبتت مليون شجرة من الحب و الوفاء طوقت (مقابر فاروق) فحولتها روضة من رياض الصالحين فى موكب حزين يحكى مراسم تشييع جثمانه الطاهر و تقول (الذكرى للانسان عمر ثان)

و ما زلت باقيا هنا وكاننى انتظر عودته من مشوار بعيد.. الحق أقول لكم أننى انتظر عودة الروح الى جسد قصيدة دفنت فى اعماقى لحظة وفاته ..